طوق نجاة

مع نسمات الليل أسير، أستنشّق رحيق الهدوء، أبحث عن بعض الراحة، أروي ظمأي لموج البحر؛ حينما يلامس أقدامي، يهدهدني، ويداعب أصابعي في مجون، كم أعشق البحر وظلمة الليل وصوت الموج! أمام البحر أشعر أن العالم بلا حدود، تتحرر رُوحي، وأحلِّق بين النجوم.

أبحر داخل قلبي، وأغوص في أعماقي. أطمئن من نبضي إلى أنني ما أزال أتوق إلى الحب غير المشروط. إلى ذلك العشق القادر على أن يتجسد كجداريةٍ تمتلئ بالمنمنات من الأحجار والفسيفساء الدقيقة والموزاييك. لا يوجد سبب ليحتاج أحدُنا إلى الحب أو لأن تتوق نفسه للعشق، نحن بالفطرة نحب، لا يمتلك أحدٌ تفسيرًا للحب؛ حتى الحكماء. ولا طوق نجاة ينجينا من الحب، ولكنه فقط ينجينا من الغرق فيه.

صوت نجاة يأتي من أحد كبائن استانلي:

أنا بعشق البحر

زيك يا حبيبي حنون وساعات زيك مجنون ومهاجر ومسافر

وساعات زيك حيران.. وساعات زيك زعلان

وساعات مليان بالصمت .. أنا بعشق البحر

أفقتُ من عشقي وخيالاتي على صوتِ بكاءٍ مكتوم! لأجد على يساري سيدةً تحمل بين يديها طفلَها، تنظر إلى البحر شاردةً، لا تعبأ لبكاء الصغير، ماذا تنوي أن تفعل؟ يبدو أنها...! تُقبل على الانتحار! قفزتُ من مكاني أمسِك بكتفها أهزُّها لعلها تستفيق، تجثو على ركبتيها، تستغفر، تبكي وتنتحب حاضنةً وليدَها بقوة. يكاد يختنق، أحاول فك يديها، تخور قواها، وترتمي على الرمال منهارة، ترفع رأسها، تستنجد وتسألني:

لم أكن امرأة سوء. نَحْسًا قد أكون، ولكن ما لي والأعمار بيد الله؟!

لا أزال لا أعي كلمةً مما تقول، ثمّ استأنفت القول:

تزوجت وما زلت لم أكمل العشرين في بيت أهل زوجي، كانت لي شقتي الخاصة.

منذ دخلت البيت، وعيون النسوة تلاحقني، تملؤهن الغيرة من سعادتي وزوجي الذي غمرني بالحب والاهتمام. كان المدلل بين إخوته، أصغرهم وأكثرهم شبابًا، لم يمهلني القدر، تبخّر هذا كله بخبر حادث أليم على الطريق، لقد مات. ولم يكن لي حظ في الإنجاب، أجبروني على الخروج من المنزل، وأخذوا مني كل ما أملك، وأعادوني إلى بيت أبي؛ لأنني شؤم على البيت ومن فيه، انتشرت الشائعة، وعانيت من ألمٍ وأوجاعَ نظرات لا ذنب لي فيها. تُوفي أبي. ظللت حبيسةَ أفكارِ مَن حولي؛ إلى أن قاربت الأربعين، ليأتيني ذلك العجوز، تاركًا أبناءَه وزوجته ليعيش حياته ويجدد شبابه، استأذن أبناءَه كطفلٍ صغيرٍ، وافقوا على مضض! حملي كان مفاجأة صادمة للجميع حتّى أنا، فرحة لم أتوقعها أبدًا، عنَّفني. ظل يحدق في التلفاز وينفث دخان سيجارته في عصبية؛ فلم يكن زواجُه مني إلا ليستمتع بحياة لا تحمل أي ارتباط، ولا تحتوي على أية مسؤوليات. هو وفقط أما أنا فإلى فناء، لن يتنازل عن شغفه بالاستمتاع بالحياة لأي سبب كان. أخبرني أنه دفع ثمن زواجه مني لأبنائه. أورثهم كلَّ شيءٍ في حياته قبل عقد زواجه؛ حتى البيت الذي يقيم فيه معي ليس ملكًا له! لم يعنِنِي، ولم أفكر للحظةٍ في التنازل عن جنيني،

طأطأت رأسي باكيةً علِّي أن ألوذ برحمة قلبه، أصبحت أعلم أنه لن يرثه، ولكنني لم أعلم أنه لن يراه!

سكون عجيب يسود، رحت أتحسسه. أهزه لعله يستفيق. فارق الحياة! يحملونه على الأكتاف، ويحملونني إلى المشفى، أصرخ من ألم الفراق والمخاض.

عدت فلم يكن لي مكان، اتهموني بأنني امرأة سيئة أغوت أباهم ليهجرهم، ثم عدت وقتلته لأرث، ولكن القدر أنجاني من كيدهم.

لذتُ بالفرار، لم يعد لي مكانٌ أقصده، افترشتُ أمام الجامع، نهروني، واستعاذوا بالله من الشيطان الرجيم، نظروا إليَّ أنا وابني بوصفنا خطيئة. ألقى كلٌّ مصلٍّ عليَّ حجرًا، يستعيذ بالله منِّي! وهذا يدعو بالستر لولاياه، وآخر ينهرني ويسبني لأنني من تنازلت عن شرفي؟ وصارعني الشحاذون؛ لأبحث لي عن مكان آخر، ولِلَّيل عيون تنهشني. أظلمت الدنيا من حولي، صعبة تقلبات الحياة، كلنا كأوراق الخريف حينما نسقط تتلاعب بنا الرياح كيف تشاء.

امتدت كف الطفل خارج الغطاء، فأسرعَتْ تدسها بين طياته لتحميه. نهضت تستغفر، وعادت من الطريق نفسه.

سارعتُ وراءها، أناديها:

"ياااا... لم أعرف اسمك". استدارت لتخبرني:

"زينب".

"هل لكِ بعملٍ في حضانة للأطفال ومبيت".

طوق النجاة، كنت أنا، ودرس حياة كانت هي لي.

obeikandl.com